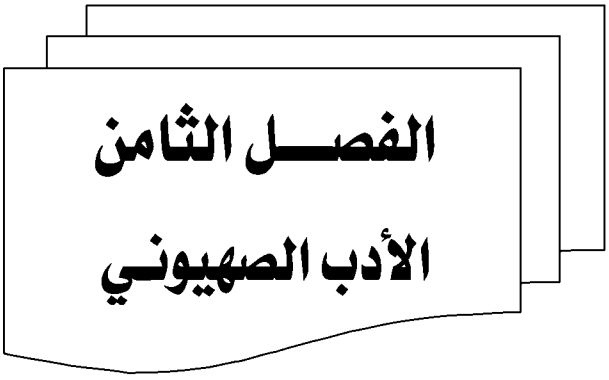
الفصـــل الثامن
الأدب الصهيونـي

يُبنى الأدب الصهيوني على معالم فلسفة دراسة ما قدمه المفكرون والفلاسفة اليهود في بلورة الفكر السياسي الصهيوني من أمثال الصهيوني اليهودي الألماني "موسيس هيس" صاحب كتاب روما والقدس، والمفكر "ليو بنسكر" رئيس جمعية أحباء صهيون التي تكونت في روسيا، و"تيدور هرتزل" مؤسس الحركة الصهيونية وصاحب كتاب دولة اليهود، و"آحاد هاعام" صاحب فلسفة الصهيونية الثقافية، و"آرون دافيد جوردون" صاحب دين العمل و"فلاديمير جابوتنسكي" صاحب فلسفة القوة، وباستقراء ما كتبه هؤلاء المفكرين الصهاينة وغيرهم من القادة اليهود، نستطيع أن نستدل على النظام التربوي الذي تنشأ على أساسه المناهج التربوية والأهداف التي تحقق ذلك.

من معالم هذه الفلسفة التربوية الصهيونية، هو ما بني منها على أسباب احتقار اليهود واضطهادهم في جميع أنحاء العالم، على مر التاريخ في البلدان التي حلوا فيها منذ العصر الفرعوني، لهذا برزت المشكلة اليهودية في العالم بسبب التحولات والتقلبات وصدام المصالح بين الدول العظمى، وراح الجميع يدفعون في اتجاه إيجاد مخرج للمشكلة اليهودية، فوجد زعماء اليهود متنفسًا لهم، فقامت الحركة الصهيونية العالمية، وراحت تعمل على شتى الأصعدة لدى الدول والزعماء في العالم، وصورت اليهود على أنهم شعب منبوذ ومضطهد، وأن مشكلتهم ليس لها حل ماداموا مبعثرين في العالم على شكل جماعات صغيرة العدد في المجتمعات التي يقيمون فيها.

يقول "هرتزل" في كتاب دولة اليهود، "إني اعتبر أن الاضطهاد ضرورة من ضروريات الصهيونية، فاللا سامية فيها بعض عناصر التلهي القاسي والمنافسة التجارية والتعصب الموروث واللا تسامح الديني، ولكنني أجد فيها أيضًا الحاجة الملحة للدفاع عن النفس"، وقد نجحت الصهيونية في ذلك مما جعلها تؤكد على هذا المعنى في المناهج الدراسية في إسرائيل لتعميق هذه المفاهيم، لقد ظل اليهود على خلاف مع سائر الأمم القديمة حيث يعتقد "آحاد هاعام" أن سر بقاء الشعب اليهودي، هو فيما عمله الأنبياء في أن يحترم قوة المادة، أي هدف لا

يعتمد على الثقافة القومية وخاصة الهدف السياسي، فتظل قوة المادة قادرة على الإغراء وتحويل الناس عن الإخلاص إذا ما سعوا وراء المادة والسلطة، ويعتقد "هاعام" بقوله "إن قادة إسرائيل إذا لم يكونوا مثقفين بالثقافة اليهودية، فإنه مهما بلغ إخلاصهم لدولتهم ومصالحها، فإن مقياس هذه المصالح سيكون وفقًا للحضارات الأجنبية، لأنهم هم أنفسهم اقتبسوها وسوف يحاولون بالاقتناع أو بالقوة أن يثبتوا أن تلك الحضارات في الدولة اليهودية ستحولها في النهاية من دولة يهودية إلى دولة ألمان أو فرنسيين من شعب يهودي.

ويبرر "آحاد هاعام" دور التربية في تحقيق ما يدعو إليه، فيقول ما معناه، بإن الحياة القومية الكاملة تتضمن شيئين، إفساح المجال للقدرات المبدعة للأمة من خلال ثقافة قومية خاصة بها، ونظام من القيم يمكن من خلاله لجميع أفراد الأمة أن يتشربوا تلك الثقافة وينصهرون فيها، وهذان الجانبان يعتمدان على بعضهما، وإذا لم يتشرب الأفراد بالثقافة القومية فإن نمو الأمة سيتوقف، وإذا لم تستخدم هذه القدرات في خدمة تنمية الثقافة القومية بشكل كاف فإن تربية الصغار ستصبح ضيقة وسيتضاءل تأثيرها تدريجيًا على الأفراد.

أما عن اللغة فإنها لا تكفي وحدها لإيجاد قومية مشتركة، حيث نرى أن كثيرًا من دول العالم تتكلم الإنجليزية مثل الولايات المتحدة الأميريكية وكندا واستراليا وكثير من المستعمرات البريطانية، ولم تدَّع انجلترا أن هذه الدول تكون القومية البريطانية، بالإضافة إلى أن هناك ثلاث لغات تجمع اليهود هي لغة اليديش واللغة العبرية القديمة والعبرية الحديثة.

ونفس الشيء بالنسبة لرابطة الدين كأحد مقومات القومية المشتركة فإنها لا تنهض دليلاً قاطعًا على اكتساب هذه القومية، فالدين وحده لا يمكن أن يخلق القومية أبدًا وإلا لأصبح أصحاب الدين المسيحي قومية واحدة من شرق الصين إلى أميركا اللاتينية، وينطبق القول كذلك على الثقافة حيث أن توزع اليهود بين الأمم جعلهم يحملون صفات مغايرة من ثقافات تلك الشعوب.

أما بالنسبة للتاريخ فنورد قول الفيلسوف "جان بول سارتر" في هذا الصدد "إنني أنكر حق اليهود في اصطناع قومية وطنية، أو حتى اشتراكهم في عاطفة واحدة أو تاريخ واحد، أو تراث فكري مشترك، ذلك لأن تاريخ وطن اليهود في فلسطين قد اندثر منذ ألفي سنة، فليس سوى العقيدة الدينية رابطة تؤلف بينهم ويشتركون فيها".

وكما نرى فلقد أنبتت الصهيونية فلسفة "آحاد هاعام"، وأوجدت لها جذورًا في الدين اليهودي والكتب الدينية واستفادت منها وغذّتها، ففكرة أن اليهود موعودون بوراثة الأرض المقدسة في فلسطين جاءت في كثير من نصوص التوارة، فأضحت الصهيونية دينًا قوميًا، حيث التحمت العقائد الروحية المتزمتة، والتقاليد الاجتماعية المتعصبة، والمبادئ السياسية المتطرفة، فجاءت فكرة الحنين إلى أرض الميعاد والدعوة إليها كعقيدة دينية ذكروها حيث كتبوا التوارة والتلمود وغيرهما من الكتب، ولقد ذكر في أحد المزامير:

"على أنهار بابل هناك جلسنا
بكينا أيضًا عندما تذكَّرنا صهيون
لأن هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة
ومعذبونا سألونا فرحًا قائلين:
رنموا لنا ترنيمات صهيون
فكيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟
إن نسيتك يا أورشليم تنسني يميني،
ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك،
إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي".

استحوذ موضوع الأرض في الأدب الصهيوني اليهودي على مساحة واسعة في الفكر الاستيطاني لفلسطين، لأن الصهيوني قد أدرك أهمية الأرض، وكونه أراد أن يصنع قومية، لأن سعيه إلى عمل كيان للأمة اليهودية لم يكن سهلاً، وذلك لافتقاده لأساسيات البناء، فبناء الدولة يحتاج في الأساس إلى أرض ينطلق منها

الإنسان لكي يواجه التحديات الداخلية والخارجية، وهذا ما لم يكن متوفرًا لليهودي الصهيوني، لذا يُعتبر موضوع الأرض من أهم محاور الأيديولوجية الصهيونية منذ أن كانت فكرة، وموضوع الأرض من ناحية أخرى، لم يكن جديدًا، فقد استأثر على اهتمام مفكري الصهيونية الأوائل ثم اهتمام من أتوا منهم بعد ذلك.

المفارقة أن اختلاف الأدباء الصهاينة في طرق تناولهم لموضوع الأرض، وطرحه حسب العقيدة الفكرية والدينية والسياسية لم يأت بجديد، عدا تلوين أطراف الصورة التي رسمها الواحد منهم للأرض الفلسطينية، بمعنى أن الاختلاف كان فنيًا فقط من الخارج، ولم يمس الفكرة التي رسموها في مخيلاتهم، الدليل أن الأهداف بقيت واحدة موحدة ولم تتبدل رغم تواجد هؤلاء الأدباء والمفكرين في بيئات وظروف مختلفة وانتماءات سياسية مختلفة.

إن المفكرين الصهاينة ظلوا ينظرون إلى فلسطين من واقعها الديني في الأدب اليهودي، وهذه تبدو ظاهريًا بعيدة عن مفهوم الصهيونية اللاديني، لكنها ليست كذلك لأنها جزء من الصورة الدعائية التي رسمتها الصهيونية للأرض الفلسطينية ووضعتها لخدمة أهدافها، إن أهم ما في المشروع الصهيوني هو العمل الدعائي الذي يحث اليهود على الهجرة إلى فلسطين، وهنا لا مناص للادينيين الصهاينة إلا أن يدعو اليهود للهجرة إلى فلسطين من مصادر وأطروحات يتوجب أن تلتقي في مركز الفكرة الصهيونية، كون البعد الديني لصورة الأرض الفلسطينية هو أساس قوة التأثير فيها، بل هو الأكثر جذبًا للمفكرين لمعالجة الإسقاطات الصهيونية التي تأتي وتذهب مع الأيام، لهذا وجب التوقف ولو قليلاً عند البعد الديني والحديث عنه.

لا نبالغ حينما نقول إن الحديث عن أرض فلسطين هو الأقدم في الأدب اليهودي، بل إن أدباءهم وشعراءهم قد أسهموا بالكثير عن الأرض أكثر من أي شيء آخر، حتى قبل أن توجد الصهيونية كفكرة سياسية أي قبل قيام إسرائيل بزمن، ويمكن أن يدرك هذا كل من قرأ نتاجات الأدباء اليهود أينما عبَّروا عن حنينهم للأرض

الفلسطينية، لقد زاروها وحجوا إليها وأقاموا فيها أحيانًا، ليس بهدف استعمارها وإنما كونها مقدسة ومباركة كما ذكرت في التوراة وفي غيرها من كتب اليهود، وهذا إنما يدل على أنهم كانوا يحنون إليها ويشتاقون كونها مقدسة، ولأنهم يرتبطون عاطفيًا بها، ولم يكن هذا الارتباط والحنين بسبب سياسي أو عن خلفية أيديولوجية، ولولا أن الأرض كانت هي محور المشروع الصهيوني لما كان للفكرة الصهيونية لزوم، لذا نجد أن الصهيونية رغم أنها ذات أيديولوجية علمانية بحتة، فإنها لا تبتعد في أطروحاتها عن القدسية الدينية التي يعطيها اليهود للأرض.

الأدباء والشعراء اليهود كتبوا الكثير عن الحنين الديني لأرض فلسطين، فعلى مدى الأزمان لم يشيروا إلى حنين سياسي لفلسطين، بقوا هكذا حتى جاءت الصهيونية، وراحت توظف حنينهم الديني للأرض في خدمة صور الأيديولوجية السياسية المختلفة للطيف الصهيوني العام حسب المدارس الفكرية الصهيونية، إلى أن تحول الحنين إلى مشروع استعماري استيطاني للأرض، لقد ساهمت قدسية الأرض الفلسطينية على توحيد التيارات الصهيونية، مما جعل مشروع الوطن القومي اليهودي يبدأ عملاقًا، وعد بلفور وضمانة دولة كبرى للتنفيذ قيام دولة إسرائيل وحماس يهود العالم بعد أن جمَّدوا خلافاتهم التفسيرية وتركوها لمن يستوطن الأرض ليحلها بكيفية ما، هذا عوضًا عن التفاف العالم المسيحي حول المشروع الصهيوني ظلاً وحماية.

إن المفهوم الصهيوني بالنسبة لأرض فلسطين قد تطور، والصهيونية راحت علنًا توظف البعد الديني عند اليهود لأجل الأيديولوجية السياسية، بل ذهب بعض الصهاينة إلى أبعد من ذلك بأن أضافوا التقديس على الوطنية الإسرائيلية، وطبعًا لن تكون هناك وطنية بدون أرض، فالتقديس هنا صار للأرض، قال موشيه ديان يومًا: "إن أرض إسرائيل هي ربَّهُ الوحيد".

لم تتردد الصهيونية أن تُضفي على احتلالها للأرض الفلسطينية بُعدًا دينيًا أيضًا رغم أنها علمانية، فراحت تدَّعي عبر آلتها الإعلامية بأنها حينما تستولي على

أرض من الفلسطينيين، إنما هي تستعيد حقًا وليس احتلالاً، والغريب أنها استطاعت فعلاً أن تخدع العالم وجعلته يُصدق أن المقاوم الفلسطيني حينما يتصدى للاحتلال الإسرائيلي إنما هو معتدي وإرهابي، وهذا يعود إلى مهارة الصهيونية في توظيف الدين في خدمة السياسة، لهذا حينما تحقق الصهيونية إنجازًا ملموسًا على أي صعيد على حساب العرب؛ فإنها توظف السياسة للدين ما دام سيخدم الهدف الصهيوني، فنجد أنها تدفع العالم بأن يعلن أن إسرائيل يتوجب أن تكون دولة يهودية بالمعنى الديني، وقد لمسنا هذا على لسان الرئيس الأمريكي "جورج بوش" الذي كرر أكثر من مرة بناء على الرؤية الصهيونية التي يُطالب بها الزعماء الإسرائيليون من الفلسطينيين، وهُم بهذا المطلب يبيتون للحصول على ثمن كبير من الفلسطينيين، لأن في حال إقرار الفلسطينيين بيهودية الدولة الصهيونية، فمعنى ذلك سقوط حق العودة للاجئين الفلسطينيين.

كما أن تبني الصهيونية للبُعد الديني يُعتبر دعوة للمستوطنين اليهود بأن يتشبثوا بالأرض، فالصهاينة يوقنون بأن لا شيء يربط اليهود في فلسطين سوى ما استقر في وجدانهم من خلال قراءاتهم عن فلسطين في الكتب الدينية المختلفة، وهم ينشدون أن يحولوا العلاقة الدينية العاطفية بين المستوطن اليهودي وأرض فلسطين إلى بديل للعلاقة الوطنية الطبيعية التي تربط أي إنسان بأرض وطنه، فصار يُروَّج للوطنية في الدولة الصهيونية على أنها نوع من التدين، إن من المؤكد أن جملة الأهداف السابقة التي كانت نصب أعين مؤسسي الصهيونية، كانت نصب أعين رواد أدبها أيضًا، لاسيما وأن بعضهم كان من أولئك المؤسسين للمنظمة الصهيونية، الذين تمسكوا بالأهداف فسخَّروا طاقاتهم الفنية والأدبية أيضًا لإبراز البُعد الديني لصورة الأرض الفلسطينية وكأنه بُعد تاريخي سياسي (تزييف)، وهم يتوخون من وراء هذا تحفيز اليهود الآخرين للهجرة إلى فلسطين واستيطانها.

مما يلفت نظر المتتبع للأدب الصهيوني، إن المفكرين الصهاينة الأوائل حاولوا دائمًا تشكيل صورة الأرض الفلسطينية ليس بناء على ما رأوه على أرض الواقع

ولمسوه وعايشوه حسيًا ورأوا من معالم جغرافية فلسطين، وإنما كتبوا من مجموع صفاتها وجغرافيتها كما تحدثت عنها التوراة، ذلك لاعتقادهم أن تلك الصفات التوراتية يمكن أن تتسلل إلى الوجدان الديني للقاريء اليهودي، وتؤثر عليه نفسيًا وعاطفيًا لكي يتجاوب مع الدعوة إلى الهجرة إلى فلسطين، إن الأدب هو ابن البيئة لذا فإن أولئك الأدباء الذين يصفون فلسطين من خلال التوراة، وحتى لو أنهم أتوا إلى فلسطين زائرين وشاهدوا معالمها، فإن نتاجهم الأدبي سيظل يحكي عن فلسطين كما ذكرتها التوراة، لأن اللاوعي عند الأديب مُشبَّع بتراث ديني في الوجدان مفصول عن البيئة والظروف الاجتماعية في الوطن الذي وُلِدَ فيه أو في فلسطين، وإلا لماذا كانت الصهيونية علمانية ومعظم زعمائها لا دينيين، سواء من نشأ منهم في البلاد الاشتراكية أو اليهود الأوروبيين الغربيين الذين ابتعدوا عن اليهودية مسافة بعيدة واعتنقوا الليبرالية وصهيونيتهم توطينية بمعنى أنهم لن يهاجروا إلى فلسطين.

إن من الطبيعي كما ذكرنا أن يكون الأدب الصهيوني، سواء كان نثرًا أم شعرًا، إنما هو يتحدث عن بيئة المفكر مهما حاول أن يقترب بالمعاني لربطها بفلسطين، ويبدو هذا واضحًا في الأعمال الأدبية، سواء كانت رواية أو شعرًا، وفي هذا يقول أحد النقاد عن كتابات الأديب "برزيلاي" في هذا الموضوع "إن الأرض التي يصفها برزيلاي هي أرض التوراة، وليست الأرض التي يعيش عليها..."، يقصد أرض فلسطين التي هاجر إليها الأديب برزيلاي الموجه إليه النقد، وتقول الناقدة الإنجليزية الدكتور "رايزا دومب" في الإشارة إلى مدى ابتعاد الأدباء الصهيونيين الإسرائيليين عن أرض إسرائيل، "منذ أيام الحاخام "زئيف يافيتش" إلى المفكر "موشيه سيملانسكي" لم يصفوا تلك الأرض كما هي عليه في الواقع، بل كما رغبوها هم أن تكون..."

سنلاحظ أن فجوة اللا واقعية ستزداد اتساعًا مع الوقت كلما اهتم الأدباء الصهاينة الإسرائيليون بأطروحاتهم الأيديولوجية وأهدافها، إن التزامهم سيدفعهم إلى المبالغة في الابتعاد عن الواقع وهم لا يدرون بينما يحاولون الترويج على أن

فلسطين كانت "أرض بلا شعب" حينما غزوها، ولكن ما سيبقي أعمالهم قزمة، هو التاريخ الذي يكتبه الفلسطينيون بالدم منذ ما ينيف عن ستين عامًا وهم يقاومون الهجرة والاستيطان الصهيوني لأرضهم.

استمر الأدباء التالين الذين جاءوا إلى فلسطين بعد من سبقوهم من أصحاب الفكرة الصهيونية قبل الاستقلال، وظلوا يضفون الصبغة الدينية على الأرض الفلسطينية، لكن دوافعهم لم تكن صادرة عن عمق ديني توراتي لصورة أرض فلسطين بل كانت بدوافع استيطانية استعمارية فقط وإنهم سخَّروا الدين اليهودي لخدمتها مما جعل فكرة الدولة الإسرائيلية من أساسها شيئًا مؤقتًا فلم تحصل بعد كل هذه السنين على الأمن بعد.

لقد استطاع أدباء الصهيونية اشتقاق البُعد التاريخي من البُعد الديني، فلما كان معظم أدباء الصهيونية من العلمانيين واللادينيين، لإيجاد جسر بين علمانيتهم وميلهم في استثمار أساطير الدين اليهودي التي تقدس فلسطين بطريقة ما تخدم صهيونيتهم بهدف إغراء يهود العالم بالهجرة إلى فلسطين، عمدوا مثل كل أتباع الصهيونية العلمانية إلى التعامل مع تلك الأساطير الدينية بوصفها روابط تشد اليهودي روحيًا إلى فلسطين، الروابط التي على أساسها بنوا زعمهم بوجود الحق التاريخي لليهود، من هنا أو من هذه الناحية بالذات، يمكن القول بإن البُعد الديني لمعالم أرض فلسطين في الأدب الصهيوني بدأ اتصاله التوراتي يتحول إلى بُعد تاريخي بعد ولادة المنظمة الصهيونية عام ١٨٩٧م، وهو ما يعني أن الهدف الديني أخذ في التقلص، وأن الهدف الأيديولوجي الاستعماري يطغى عليه خاصة بعد قيام إسرائيل، بل إن الحديث عن أرض التوراة في نصوص الأدب الصهيوني الإسرائيلي الأحدث صدورًا، يكاد يتطابق فيه البعد الديني لصورة تلك الأرض، مع ما يمكن أن يُسمى بالبعد الوطني.

هذا ويمكن القول إن الصورة التي يرسمها الأدباء المحدثون في إسرائيل لأرض فلسطين تتطابق في تكوينها الأبعاد الثلاثة "الديني والتاريخي والوطني" كأنها بُعد واحد، إن قصيدة "أرض" للشاعرة الإسرائيلية "شيقا بيقوف" هي أحد هذه الأنماط،

فالشاعرة تصف فلسطين بأنها أرض دائمة الإشراق، وأرض العسل واللبن. الشاعرة استعارت العبارتين التوراتيتين ذائعتي الانتشار في الأدب الصهيوني، وهنا ننشر جزء من القصيدة: "أرضٌ، أرضٌ، أرضٌ.. ، أرضٌ سماؤها زرقاءُ بلا غيم، والشمسُ لها، عسلٌ ولبن، أرضٌ سنُولدُ فيها، أرضٌ سنحيا فيها، وسنبقى، وليكنْ ما سيكون..".

طالما أن الأدب الصهيوني لم يتردد أن يظل يدور حول محور الدين لأن لا يوجد غير الدين يصلح كوسيلة لمخاطبة اليهود في العالم لشدهم إلى فلسطين، ولطالما أن الحنين والألم يصنعان الاشتياق إلى الأرض من إيحاء الأجواء الدينية، فإن الحب والوله والتغزل بحب الأرض يدغدغ العواطف ويصنع فيها العشق غير المنظور، فيصبح عامًا يشد القاريء اليهودي، أن يشد الرحال بسبب الشعور الديني المغلف بالحب والحنين إلى أرض فلسطين، وهذا أيضًا يُلمس في الأجزاء الأخرى غير المنشورة من القصيدة السابقة، وفي الأدب الصهيوني بصفة عامة، رغم علمانية المنظمة الصهيونية.

لقد استطاع الأدباء والشعراء اليهود، أن يتغلبوا على علمانيتهم حينما تغنوا بالطبيعة على طريقة الأدباء الأوروبيين، لكن الصهاينة تغنوا بالطبيعة على غير طريقة الشعراء الأوروبيين، ففي الوقت الذي تغنى الشاعر الأوروبي بالطبيعة كالطفل الذي يهنأ بالارتماء في حضن أمه الطبيعة الجميلة، نجد الصهيوني العلماني يتغنى بالطبيعة وهو يعني أرضًا بعينها، يفصل الجمال وحسن المشاهد وهو يشير بالمعاني المجازية إلى أرض بعينها هي فلسطين، لكي يصنع حبًا لم يكن بين اليهودي الغريب والأرض التوراتية التي تحدثت عنها الروحانيات في الأدب اليهودي، الأديب حينما يتحدث عن الأرض ويذكر الجبال والوديان والتلال والأشجار وشاطيء البحر إنما هو يعني أي جبال وأي تلال وأي شاطيء، فلا شيء يربطه بذاك المكان لأنه لم يعش فيه قبلاً ولم يشاهده في حياته قط، فأي علاقة تربط اليهودي بأرض فلسطين حتى وإن شدَّه إليها حب الفضول يومًا!

هذا يلتقي مع أي تجربة إنسانية أخرى، يمكن أن يعيشها المرء وهو على قيد الحياة، أذكر (الكاتب) بعد أن هاجرت بأسرتي إلى كندا، بعد أن ضاقت الأرض العربية بنا، أني اشتريت مزرعة في الريف الكندي مساحتها (١٢٠٠) دونم، وبها بيت وأشياء أخرى، ولمَّا كانت أسعار الأراضي الزراعية في ذلك الوقت رخيصة نوعًا ما، وبسبب أنني كنت محرومًا من التملك في البلاد العربية كوني فلسطيني الأصل، كانت الأرض تصلح للزراعة العادية ولزراعة الأشجار أيضًا، كان بالمزرعة كما أشرت بيت ريفي كبير مجهز بكل شيء للإقامة فيه من خط الهاتف إلى الكهرباء إلى هوائي التلفاز وغيره.. وأعطيتها اهتماما كبيرًا، ولمَّا كانت الأرض مُهملة منذ زمن طويل فقد نبتت الأشجار على اختلاف أنواعها في تلك الأرض، هذا بالإضافة إلى أشجار الصنوبر المزروعة منذ عشرات السنين بهدف تربيتها لبيعها كأخشاب ثمينة، ما دفعني لشراء تلك المزرعة هو أن جذوري الفلسطينية العربية، إنني كنت ابن إحدى القرى الفلسطينية التي كانت تقع ملاصقة لبلدة "أسدود" من جهة الجنوب، أو على بُعد ثلاثين كيلومترًا شمال مدينة غزة على شاطيء البحر، فقد ولدت في بلدة حمامه وشاهدتُ الريف الفلسطيني هناك، وكان أهلي وأقاربي يعملون بالزراعة، فإن لم أكن خبيرًا في زراعة الأرض إلا أن الزراعة تسري في دمي من خلال المعايشة حينما كنت طفلاً قبل أن نُجبر على مغادرة حمامه عام ١٩٤٨م.

حينما كنت اذهب إلى المزرعة التي اشتريتها في كندا في أيام العطلة الأسبوعية للتمتع بالإقامة في البيت الريفي هناك والتجوال في الممرات بين الأشجار الكثيفة، كنت مبهورًا بجمال الريف الكندي الخلاب، خصوصًا في الفصول الثلاثة الأخرى من السنة ما عدا فصل الشتاء، وحقًا قيل إن من الجمال وجود الماء والخضرة.. وكان هذا منه الكثير في المزرعة، كان كل شيء جميل، بل ومن أبدع ما أتى به الخالق، كنت كثيرًا ما اذهب وحيدًا إلى المزرعة، كان الأبناء خلال أيام الأسبوع بالمدارس، مرات كانت الزوجة تصحبني إلى المزرعة لتفقد البيت والحاجيات هناك، وكنت في كل مرة أزور فيها المزرعة أقضي فيها سويعات قليلة ثم أعود

إلى بيتنا في المدينة، لكنني في مرات كثيرة كنت اذهب وحيدًا، وكنتُ اترك السيارة بجانب البيت ، وأمضي متمشيًا في طرقات المزرعة أو بين الأشجار الكثيرة والكثيفة التي كنتُ والأبناء قد صنعنا منها متنزهًا جميلاً بعد أن شظفنا الأغصان التي تمنع المرور من تحت الأشجار المتلاصقة، اشترينا تراكتور لكي يمكن السير به على أرضها الوعرة ولكي نستعمله للجر أو سحب مقطورة خلفه، واشترينا سيارة نصف نقل خصيصًا لأعمال المزرعة، لكننا لم نكن نهدف من كل هذا إلا التمتع بالملكية وليس للزراعة أو إنتاج أيًا من المحاصيل، كون الزراعة تحتاج إلى جهد كبير وأفرادًا متفرغين، وهو ما لم يكن متوفر لدينا، إلا أن ملكية المزرعة وكونها مسجلة باسمي كان هذا يكفي في ذلك الوقت.

وكون البيوت الريفية متباعدة عن بعضها تمشيًا مع كبر مساحات المزارع في المنطقة، وكون استعمال الآلة في الزراعة شائعًا فإن عدد السكان وقلة أعداد أفراد الأسر الريفية يعتبر عاديًا، كان الشائع أن يُقيم في أي مزرعة شخص واحد أو اثنين في المتوسط العام، وهذا كان يكفي لكل شيء في المزرعة ما دامت الآلات المتعددة الاستعمال متوفرة لدى صاحب الأرض، لهذا لم يكن هناك أشخاص كثيرين يمكنني أن أزورهم أو أتحدث إليهم وأقضي معهم وقتًا طويلاً، كنت في كل مرة أزور فيها المزرعة، أسير بين الأشجار وعلى الأعشاب متمتعًا بما أشاهد من أشجار وبرك الماء والطيور والحيوانات البرية (الغزلان بالذات)، وبينما أنا كذلك كان في داخلي دائمًا يدور حديث صامت بيني وبين نفسي، كنت دائمًا أتحدث مع نفسي ومع أرض المزرعة التي كنت أكاد لا أصدق إنني أملكها. كان هذا إحساس خفي، كنتُ كثيرًا ما أتساءل بيني وبين نفسي، هل هذه الأرض لي حقًا، وهل سأبقي عليها وأبقي على ملكيتها؟! هل سأحبها كما كنت أحب ريف بلدتي "حمامه" في فلسطين حينما كنتُ طفلاً، كنت في الحقيقة أوجه أسئلة أكثر من هذا، وحينما كنت أعطي نفسي شيئًا من الراحة من عناء استقبال أسئلتي كنت اذهب ثانية إلى التساؤل، "لماذا أنا هنا"، "هذه الأرض أكبر مساحة مما كان لوالداي في بلدة حمامه التي هاجرنا منها أصلاً، ألا يجب أن ننسى وننـدمج

ونعيش حياتنا في الوطن الجديد كندا! ألا يعوِّض هذا عن حمامه؟!" ورغم أنني كنت أشعر بالانتصار لأنني أصبحت أملك أرضًا، إلا إنني لم أكن سعيدًا، لأنني حينما أكون بالمزرعة كانت لا تغادرني الأسئلة والتساؤلات، فقد كنت أشك رغم ملكيتي القانونية لذاك العقار.

مرت عدة سنوات على هذا المنوال وأنا أحاكي نفسي.. وأحكي مع الأرض حتى كان عام ١٩٩٤م حينما دخلت السلطة الفلسطينية إلى أطراف فلسطين (غزة والضفة)، في عام ١٩٩٥م ذهبتُ إلى مدينة غزة بغرض الزيارة، أمضيتُ شهرًا وبعض الشهر، ثم عدتُ مسرعًا إلى كندا، قمتُ بلا تردد ببيع المزرعة والعودة ثانية إلى غزة، كنت أهدف إلى الاستقرار النهائي في فلسطين، ثم توالت الأحداث ولم يتحقق الأمل!

الأرض هي الأرض في كل مكان، لكن البيئة ليست البيئة في كل مكان، والظروف الاجتماعية ليست هي أيضًا، وإلا لماذا قمت ببيع المزرعة وذهبت إلى فلسطين رغم أن المزرعة كما الريف الكندي بصفة عامة ربما أجمل طبيعة في هذا العالم، الإنسان يحن إلى مسقط رأسه دائمًا، وما عدا ذلك من الأوطان ما هو إلا وهم يعيشه، وفيه يعيش الإنسان السنين كاللحظات العابرة، وسرعان ما يعود إلى حب مسقط رأسه، الحب المتغلغل في ذرات الجسد، الحب الذي يُبقي الروح ثملة لا تفيق منه أبدًا، قد يتغنى الواحد منا بوطن جديد وببيت جديد وبمزرعة جديدة وبأي شيء آخر، لكن لا شيء مثل مسقط الرأس مهما تصنَّع الواحد منا، ومهما جادت القريحة أو أخصب الخيال، خصوصًا حينما يشعر بشيء من الاستقرار المادي.

نعم أنا مسلم ويربطني الكثير بمكة مدينة الإسلام الأولى، ونفسي تهفو إليها، وأحبها وأقدسها، ولكنني ما حلمت يومًا قط أن أقيم فيها، ولن ترقى مكة بأي حال من الأحوال كمجرد أرض، بأن أفضِّل الإقامة فيها على بلدتي الخالدة حمامه في فلسطين، ولما كنا جميعًا بشر فإن حب الأدباء والشعراء الصهاينة لأرض فلسطين والتغزل بها، ليس سوى حب غير واقعي، وهو غير منطقي كون الأديب

والشاعر الصهيوني هو أيضًا غير ديني، فأين علاقته بأرض فلسطين إلا إذا كانت العلاقة لشيء آخر وسبب آخر، لماذا لا نعتبر أن هدف المفكر الصهيوني اليهودي ما هو إلا بغرض خداع فقراء اليهود بوعدهم بأرض العسل واللبن لدفعهم للهجرة إلى فلسطين، لإيجاد زعامة دنيوية مادية، وما هي في حقيقتها سوى أنها إمبريالية استعمارية بهدف الهيمنة، وهو ما عنته القوى الغربية التي باركت قيام الدولة الوظيفية (إسرائيل).

إن من أبرز أدباء الصهيونية الرومانتيكيين ممن لوّنوا البعد الديني لصورة الأرض الفلسطينية لتمرير خطة الخداع، الروائي الصهيوني "شموئيل يوسف عجنون"، الذي منذ أن اتخذ قراره بالهجرة إلى فلسطين؛ ما فتأ يتحدث عن ذلك القرار، وما زال يصف الأرض كمسكن مبارك مثل كلمات الرب المقدسة، "فمستوطناتها مظللة بظلال أشجار الزيتون، وكل الحقول مكسوَّة بالغلال، وما بقي من أشجارها مزينٌ بالفاكهة، أما السهول فتتفتح الأزهار فيها وتتمايل أشجار الغابات، والسماء زرقاء كلها، وجميع البيوت تضج"، والأديب عجنون هنا يحرص على تلوين البعد الديني لصورة الأرض بدافع ترغيب الغير بالقدوم إليها، بل إن من السهل أن تجد أديبًا صهيونيًا آخر يتغنى بالقدس، لكي يوظف مظاهر الاغتراب لتأكيد البعد الديني/اليهودي لأرض فلسطين، وذلك من خلال الطابع التوراتي الأسطوري الذي يُرمَز إليه بقبور أنبياء بني إسرائيل مثلاً.

لقد اعتاد الصهاينة من سياسيين وأدباء بمن فيهم من تقلدوا مناصب الوزراء ورؤساء الوزارات، أن ينكروا وجود السكان في فلسطين قبل أن يأتي اليهود إليها ويقيموا دولتهم (أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض)، وما كانوا ينشدون سوى إعطاء بعض الأخلاقيات لاحتلالهم لفلسطين، وهم إنما كانوا يودون أن يؤكدوا بأن فلسطين فارغة من السكان، وأن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين لا يُشكّل اعتداء على أحد، لذلك لم يخلو الفن الصهيوني من الإشارة بالطرق المختلفة على أن فلسطين لم يكن بها أحد حينما أتوا إليها لكي يقيموا دولتهم الصهيونية.

من تلك الوسائل التي لا تُكلف شيئًا، هي عدم الإشارة إلى الفلسطينيين، في المتحف الإسرائيلي بمدينة "عكا" تجد قصة إنشاء الدولة الإسرائيلية مكتوبة على لوحات وواجهات واضحة جدًا، وبطريقة سرد تاريخي لم يغفل لا شاردة أو واردة حسب ما يهدفون، كل شيء هناك مكتوب بثلاث لغات، العبرية والإنجليزية والفرنسية، أما اللغة العربية فليس لها وجود، كما أن لا إشارة البتة إلى الشعب الفلسطيني في تلك اللوحات، حتى أن حرب ١٩٤٨م يقولون عنها إنها حرب الاستقلال، وقد تمت بين المقاومين اليهود والجيش البريطاني المحتل دون أي ذكر لا للفلسطينيين ولا حتى للجيوش العربية التي يتحدثون عنها كثيرًا في ظروف أخرى خارج رسالة المتحف.

لقد اتبع أدباء الصهيونية الأسلوب غير المباشر في طرحهم لقضايا الاستيطان، لأن المباشرة قد تؤدي إلى تناقض، وقد تقود إلى فضح حقائق الواقع ومعطياته، لهذا آثر معظم الأدباء الصهاينة إلى عدم المباشرة في طرح ما يزعمون، وفي أحايين كثيرة كانوا يجدوا أقلامهم وقد جفَّ حبرها حين الكتابة عن الفلسطينيين لا مدحًا ولا ذمًا بغرض التجاهل وإنكار لوجودهم، وذلك للإبقاء على معنى أن فلسطين لم تكن مسكونة ببشر حينما قدموا إليها، من هنا نجد أن الأدب الصهيوني قبل قيام إسرائيل كان عن عمد يشيع بأن فلسطين أرض خالية، مما جعل الصهاينة الآتين بعد قيام الدولة، يجعلون من هذا النفي قاعدة يمجدونها ويعطونها بُعدًا زمنيًا، لأجل توظيفها لمرحلة ما بعد قيام إسرائيل، لذلك تجد في خطاب الدكتور حاييم وايزمان ما يؤكد هذا حينما قال في خطاب له عام ١٩٣١م، "إذا راجعتم الأدب الصهيوني الصادر قبل الحرب (يقصد الحرب العالمية الأولى) فبالكاد تجدون كلمة عن العرب فيه".

وحتى بعد قيام إسرائيل فإن الأدب الصهيوني بقي حريصًا على الاستمرار في نفي الوجود العربي في فلسطين، "الحروب الصليبية" هي رواية للإسرائيلي "عاموس عوز"، نجد أنه أغفل فيها ذكر العرب بتاتًا، رغم أن العرب اكتووا بويلات الحروب الصليبية لأكثر من قرنين من الزمان كما يجمع على ذلك كل المؤرخين

من غير الصهاينة! ونفس الشيء فعله الأديب "شموئيل يوسف عجنون" في قصته الرمزية "من عدو لحبيب"، التي لم يجد بطل الرواية من يمنعه من استيطان القدس سوى الريح! فقد ظل يتصارع مع الريح حتى انتصر عليها في النهاية، أما الإنسان العربي صاحب الأرض الحقيقي الذي جبلت الأرض بعرقه ثم بدمائه عبر آلاف السنين فليس له مجرد أثر أو ظِل في القصة

شموئيل يوسف عجنون ١٨٨٨م – ١٩٧٠م

لو كان السارق يعلم بأن أمره سينكشف لما سرق، فكل اللصوص حينما يقدمون على السرقة يكونون موقنين بأن أمرهم لن يكتشفه أحد! حينما تحدث الأدب الصهيوني قبل قيام إسرائيل عن أرض فلسطين، تغنى بجمالها وإبداع مشاهدها، قال عن الأشجار وعن الحقول وعن السماء الزرقاء، وها هو الأديب عجنون

أيضًا يُنهي قصته القصيرة "من عدو لحبيب" التي أشرنا إليها قبل قليل، فبعد أن بنى بطل القصة بيتًا قويًا وصار يتحدى به ريح فلسطين كونه غريب، قال البطل: "وقفتُ أمام بيتي، فرأيت أن كل الأرض حوله قفراء لا أشجار، ولا بستان، فقط التراب والحجارة"، انظر كيف أن التناقض هنا لم يخدم السارق! الأديب عجنون في البداية مدح أرض فلسطين، تحدَّث عن سمائها وأشجارها.. الخ، والآن هو يقول عنها قفراء موحشة!

هذا، وعندما ينتقل الأدب الصهيوني إلى بُعد آخر، وحينما يُشير تحديدًا إلى الوجود العربي، فإنه لا يُعطي أي فرصة لاعتبار أن العربي موجود أصلاً في هذه الأرض، إنما هو قد أتى حينما أجبر اليهود على تركها، وإن وجد ضرورة في ذكر العربي في عمل أدبي ما فإنه يُشير إليه في ومضة سريعة لا تُعطي لوجوده تاريخًا أو بُعدًا زمنيًا، وسرعان ما يقع في التناقض مرة أخرى حينما يقول إن العربي جاء إلى أرض إسرائيل لكي ينتفع ويعمل عند اليهود، فكيف أن اليهودي قد قدم إلى الأرض توًا ولم يكن فيها، وكيف أنه موجود وأن العربي غير الموجود أتى ليعمل عند اليهودي غير الموجود أصلاً! كما أن الأدب الصهيوني يصوِّر العربي على أنه خائن ومخادع وجبان وغير موثوق بوعده، وهناك الكثير الكثير من الروايات الصهيونية التي تتجلى في وصف العربي.

تقول الشاعرة الإسرائيلية "نعمي شيمر" في إحدى قصائدها متجاهلة وجود الشعب الفلسطيني متحدثة عن الخواء الحضاري الفلسطيني، زاعمة أن مخلفات أجدادها القدامى ما زالت على حالها، ودليلها أنها عثرت عليها ووجدتها كما وصفتها كتب الآثار اليهودية، وهو ما يسهل على المهاجر أن يتعرف بسهولة على فلسطين منذ أن تركها أولئك الأجداد اليهود، قبل آلاف السنين! بدليل أنها تعثر عليها وقد بقيت تمامًا، كما وصفتها كتب الآثار اليهودية، الأمر الذي يُسَهِّل عليها وعلى من هاجر معها من اليهود الاهتداء إلى فلسطين، تقول الشاعرة نعمي شيمر في إحدى قصائدها مؤكدة على أن فلسطين ظلَّت خالية من السكان منذ أن تركها أجدادها اليهود منذ آلاف السنين عدا مخلفات الحضارة اليهودية القديمة:

"إنْ كنتُ نسيتُ الطريقَ، المعروفة منذ سنين، فعلى جانبَي هذي الطريـــق.. هنـــا وهناك، تُركَتْ لي صُور..".

لاشك أن (شيمر) وهي تصف لنا تلك الصور الخيالية، وطريقة اهتداء المهاجرين اليهود بها، كانت متأثرة بإحدى حكايات الأطفال الذين خرجوا باحثين عـــن كنـــز، ومعهم خريطة مضحكة تُحدِّد مكان ذلك الكنز، فتراهم ينطلقون من شجرة معينة.. على بعد ثلاث خطوات منها إلى الأمام، وأربع إلى اليمين، ثم عشرة إلى الوراء، يوجد سهم يشير إلى موقع ذلك الكنز، يُشبه ما تقوله الكلمات التالية من قصـــيدة (شيمر): "ها هو سهمٌ موجَّهٌ، مرسومٌ بالجير الأبيض، اذهـــبْ وأنـــت - باتجـــاه السَّهم - أو اذهبي خطوتان، ثم أربعُ من هنا.. مقلعُ حجارةٍ على جانبِ الطريـــق، وعليهِ ظلُّ شجرة، وبئرٌ أو اثنتان لي، لتحديد الطريق، لإشارة"، والشـــاعرة هنـــا تُشير إلى عدم وجود حضارة في تلك الأرض، والدليل عدم وجود بشر فيها، وإلا لما بقيت الأشياء القديمة على حالها منذ أن تركها أجدادها اليهود، ومن ناحيـــة أخرى يود الأدباء الصهاينة أن يقولوا بإن اليهود هم الذين ينشئون الحضـــارات، يأتون إلى الأرض القفراء، ويحيلونها جنانًا.

كما أن الأدب الصهيوني يُركز على تفوق العنصر اليهودي ويشيد بتميـــزه علـــى سائر الأجناس البشرية ويود أن يرسخ في الوجـــدان، أن الصـــهاينة هـــم بُنـــاة حضارة كما اليهود دائمًا، وهم في نفس الوقت يشيرون إلى تخلف العرب، وأنهم يستحقون احتلال الأرض لتطويرها ولكن ليس قبل طرد أهلها المتخلفين.